الفصل الرابع

العصر الآشوري

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الرابع

العصر الآشوري

العصر الآشوري

استقر الآشوريون في القسم الشمالي من العراق، ربما منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، واندمجوا بالسكان الذين عرفوا بالسوباريين. ولم يكن الآشوريون بالأقوام الغربية أو الأجنبية عن معظم سكان العراق الآخرين الذين عاشوا قبلهم أو بعدهم، فهم ينتمون إلى الأصول نفسها وإلى الشجرة ذاتها التي تفرعت عنها الأقوام الأكدية والبابلية (الأمورية) والكلدية والآرامية والعربية، وهي الأقوام الرئيسة التي استوطنت العراق منذ مطلع الألف الرابع قبل الميلاد فصاعداً. وكان منبت تلك الشجرة الأولى في شبه الجزيرة العربية، مهد الأقوام الجزرية (العربية القديمة)، والتي كانت تسمى سابقًا بالأقوام السامية، كما هو متفق عليه الآن بين جمهور الباحثين، وتكلم الآشوريون لهجة من لهجات اللغة الأكدية، وهي اللغة التي انتشر استخدامها في أنحاء العراق منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد وحتى أواخر الألف الأول قبل الميلاد.. واستخدموا الخط المسماري ذاته الذي ابتدعه السومريون وطوّره الاكديون والبابليون، واتصفت معتقداتهم الدينية وأفكارهم وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية ونظمهم الأخرى المختلفة بالصفات العامة التي اتصفت بها معتقدات ونظم وأفكار إخوانهم بقية سكان العراق حتى غدا من الصعب على الباحث أن يميز بين أصول العناصر الحضارية العراقية القديمة أهي سومرية أم أكدية، بابلية أم آشورية، بل إن التشابه الحضاري الكبير بين الشمال والجنوب، ولاسيما بين الاكديين والآشوريين في عهدهم القديم، قد دفع البعض إلى الاعتقاد بأن الآشوريين كانوا قد استقروا في بداية أمرهم في جنوبي العراق ثم نزحوا إلى الشمال في فترة متأخرة نسبيًا.

ومنذ أن استوطن الآشوريون القسم الشمالي من العراق، عرفت المنطقة في النصوص المسمارية ببلاد آشور، وربما كانت التسمية نسبة إلى اسم أول عاصمة لهم هي مدينة آشور ومن ثم أطلق الاسم على الإله القومي للآشوريين. وظلت هذه التسمية شائعة حتى القرون الأخيرة من الألف الأول قبل الميلاد أي حتى بعد زوال كيان الآشوريين السياسي.

وقد شهدت المنطقة التي عرفت ببلاد آشور أولى مستوطنات إنسان العصر الحجري القديم في العراق في وقت كان القسم الجنوبي من العراق غير آهل بالسكان.. وكشفَ عن مخلفات العصر الحجري القديم في عدد من الكهوف والمغارات، وفي العصر الحجري الحديث، ضمّت بلاد آشور أولى المستوطنات الزراعية، وكان الإنسان العراقي القديم يعيش في تلك العصور الطويلة حياة بسيطة بدائية معتمداً فيها، بداية الأمر، على ما يمكن اصطياده من حيوانات، وما يمكن جمعه من أثمار وحبوب برية، ثم غدت حياته تعتمد على إنتاج القوات بعد أن اهتدى إلى الزراعة وتدجين الحيوان، غير أن التحديات الطبيعية التي واجهها الإنسان لم تكن من القوة والقسوة بحيث تدفعه إلى توحيد الجماعات الصغيرة التي كانت تعيش في القرى الزراعية البسيطة في وحدات كبيرة ومتطورة على غرار ما حدث في القسم الجنوبي من العراق بل ظلّت حياة تلك الجماعات بسيطة ردحًا طويلاً من الزمن، حتى بدأت بوادر الحضارة الناضجة في القسم الجنوبي من العراق تمتد بتأثيرها نحو الشمال، وهكذا كان الآشوريون خلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، وكذلك خلال الألف الأول قبل الميلاد، على اتصال وثيق بما كان يجري في القسم الوسطي والجنوبي من العراق من تطورات حضارية، بل وأصبحوا في عصرهم الحديث جزءاً من تلك التطورات، يتأثرون بها ويؤثرون فيها، ويبدو أن الشعور بوحدة أرض العراق وتكاملها الحضاري والاقتصادي، بل والشعور بوحدة وتكامل المنطقة بأسرها (من سواحل الخليج العربي وحتى البحر المتوسط، ومن أطراف الجزيرة العربية وحتى بلاد عيلام) لم يكن غائبًا عن الأقوام العراقية القديمة سواء أكانوا في الشمال أم في الجنوب. وهكذا نجد، ومنذ فترة مبكرة جدًا، محاولات القادة العراقيين، أمثال لوكال زاكيزي وسرجون الأكدي وحمورابي البابلي وسرجون الآشوري ونبوخذ نصر الكلدي وغيرهم، باتجاه توحيد أرض العراق والبلدان المجاورة، وإنشاء دولة مركزية واحدة قوية تهيمن على المنطقة بأسرها، وقد نجحوا

أحيانًا كثيرة، كما تشهد بذلك الإمبراطوريات التي أسسّها سرجون الأكدي وحمورابي وسرجون الآشوري مثلاً، وأخفقوا أحيانًا أخرى في مواجهة الغزو الأجنبي الذي توالى على أرض العراق منذ أقدم العصور، كالغزو الكوتي والكشي والأخميني الفارسي والمقدوني، وسواء أكان الدافع الأساسي للشعور بضرورة وحدة المنطقة الذي هو أساس قوتها نوعًا من الإحساس القومي أو الوطني بوحدة المصير في مواجهة الأخطار الكامنة على الحدود، ولاسيما في الجبهة الشرقية والشمالية الشرقية، أم كان الدافع تفهّم أولئك القادة العظام ضرورة تكامل المنطقة الاقتصادي لتحقيق الرفاهية العامة، أم كليهما معًا، فقد كان الهدف واحدًا وهو العمل على خلق دولة مركزية قوية واحدة قادرة على إدارة شؤون المنطقة بحدودها الواسعة. وقد تطلبَ تحقيقُ ذلك الدخول في صراعات سياسة وعسكرية حادة ومريرة غير أن نتائجها الاقتصادية والحضارية كانت أكبر وأعظم.

وإذا تجاوزنا عصور ما قبل التأريخ التي سبق الحديث عنها والتي انتهت بابتداع الكتابة وسيلة للتداوين يمكن أن نقسم تاريخ الآشوريين الطويل إلى أربع مراحل رئيسية هي: عصر التبعية السومرية ـ الأكدية الذي شغل الألف الثالث قبل الميلاد، والعصر الآشوري القديم الذي يقابل تقريبًا العصر البابلي القديم، والعصر الآشوري الوسيط الذي يبدأ من حوالي أواسط الألف الثاني قبل الميلاد وينتهي باعتلاء ادد ـ نراري الثاني العرش الآشوري عام ٩١١ ق.م، وأخيرًا العصر الآشوري الحديث وهو العصر الإمبراطوري للدولة الآشورية الذي تميز بالقوة والازدهار واستمر حتى نهاية الآشوريين السياسية عام ٦١٢ ق.م بسقوط العاصمة نينوى.

أولاً: عصر التبعية السومرية – الأكدية

كانت بلاد آشور طوال الألف الثالث قبل الميلاد خاضعة للنفوذ الحضاري، وربما السياسي، للدولة السومرية والأكدية التي قامت في القسم الجنوبي والوسطي من العراق، عن بلاد آشور في النصف الأول من هذه الفترة، وهي التي تسمى عادة بعصور فجر السلالات (حدود ٣٠٠٠ ـ ٢٤٠٠ ق.م) قليلة جداً، ولا تتجاوز بعض المخلفات المادية من أبنية وفخاريات وغيرها، ولنا أن نتصور الوضع في بلاد آشور في هذه الفترة مشابهًا إلى

حد كبير للوضع في بلاد سومر في الفترة ذاتها، حيث نشأت عدة مدن ومراكز حضارية في المنطقة كمدينة آشور ونينوى وغيرهما، وربما كان بعضها على هيئة دويلات مدن صغيرة ومستقلة. وعندما قامت الدولة الأكدية التي كانت سياستها المركزية تسعى لتوحيد جميع الدويلات والمراكز الحضارية في الشمال والجنوب كان لابد من وقوع بلاد آشور ضمن نفوذها وسيطرتها. وتشير الأدلة الآثارية المتوفرة إلى أن مدينة آشور نفسها كانت تمثل أحد المراكز الإدارية المهمة التابعة للدولة الأكدية في حين أظهرت التنقيبات التي أجريت في كل من مدينتي آشور ونينوى آثار النفوذ الأكدي السياسي والحضاري بشكل واضح. ففي نينوى عُثرَ في الطبقة السادسة من معبد الآلهة عشتار على اسطوانات حجرية منقوشة بكتابة يرقى تاريخها إلى عهد الملك الأكدي نرام ـ سين (٢٢٩١- ٢٢٥٥ ق.م) حفيد سرجون، كما عثر في نينوى أيضًا على رأس تمثال من النحاس المسبوك لملك يُظنّ إنه سرجون أو نرام ـ سين، وفي السنوات الأخيرة عُثرَ عن طريق الصدفة على تمثال من البرونز لشاب جالس وعليه كتابة تشير إلى عهد نرام ـ سين.

أما في آشور، فقد كُشفَ عن عدد من النصوص القصيرة التي تذكر اسم الملك مانشقوسو بن سرجون وأخاه ريموش إضافة إلى الكشف عن أبنية ضخمة من بينها قصر واسع وجزء من زقورة معبد الإله انليل تحمل طابعًا أكديًا، ولا تقتصر التأثيرات الأكدية في بلاد آشور على الأساليب والطرز المعمارية والفنية والمعتقدات الدينية، بل جاوزتها لتشمل اللغة والكتابة. فاللهجة الآشورية القديمة تحمل تأثيرات اللهجة الأكدية القديمة، في حين اقتبس الآشوريون الكتابة المسمارية من السومريين والأكديين واستخدموها للتدوين طوال حياتهم السياسية. أما الآشوريون أنفسهم، فيبدو إنهم كانوا قد احتفوا بذكرى طيبة عن الأكديين إلى درجة أن بعض ملوكهم العظام، كالملك سرجون، قد سموا أنفسهم بأسماء أكدية معروفة.

وإبان الغزو الكوتي لبلاد سومر وأكد في أعقاب سقوط الدولة الأكدية، يبدو أنه أصاب بلاد آشور ما أصاب بلاد سومر وأكد حيث كُشفَ عن آثار تخريب في الطبقات السكنية التي ترقى بتاريخها إلى فترة الاحتلال الكوتي، وذلك في كلّ من مدينة آشور ونينوى، ولا يعرف هل أن بلاد آشور وقعت تحت النفوذ الكوتي أو أنها انسلخت عن تبعيتها للجنوب وأقامت لها سلالة محلية مستقلة.

وما أن تمّ طرد الأقوام الكوتية الغازية من بلاد أكد، وقامت سلالة أور الثالثة في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد حتى وقعت بلاد آشور ثانية تحت نفوذها. وقد كشفت التنقيبات التي أجريت في مدينة نينوى عن معبد شيدّه الحاكم زريقم للآلهة "سيدة القصر"، من أجل حياة سيّده "امار ـ سين ملك أور". وبعبارة أخرى أن زريقم كان تابعًا للملك السومري في أور. وكانت سلالة أور الثالثة قد أقامت لها دولة مركزية موحدة شملت جميع أنحاء القطر بما في ذلك بلاد آشور، ووصلت بنفوذها حتى سوريا وآسيا الصغرى غير أن نهايتها على أيدي الأقوام العيلامية الغازية من الشرق الذي رافقه تدفق الأقوام الأمورية من الغرب أنهى عهد دولة القطر الواحد، وأعاد العراق إلى عهد التجزئة والانقسام، كما كانت عليه الحال في عصور فجر السلالات، فقامت عدة سلالات حاكمة مستقلة في كل من بابل وآشور وايسن ولارسا واشنونا والدير وغيرها.

ثانيًا: العصر الآشوري القديم

أطلق المؤرخون على الحقبة التي أعقبت سقوط سلالة أور الثالثة وحتى سقوط سلالة بابل الأولى عام ١٥٩٥ ق.م مصطلح العصر البابلي القديم بالنسبة لبلاد بابل. أما في بلاد آشور فيمكن تسمية الحقبة بين ٢٠٠٠ إلى ١٥٢١ ق.م، وهي حقبة مقابلة تقريبًا لحقبة العصر البابلي القديم، باسم العصر الآشوري القديم. وقد قامت في مدينة آشور، كما في غيرها من المدن الرئيسة في العراق، سلالة حاكمة مستقلة. وكان الصراع بين السلالات الحاكمة في بداية هذا العهد عنيفًا للسيطرة على الطرق التجارية والأراضي الزراعية، واستمر هذا الصراع، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، لحقبة جاوزت القرنين حتى تولى العرش البابلي حمورابي، فأعاد للعراق وحدته، وقامت دولة حمورابي لتضمّ جميع الدويلات والمدن العراقية في الشمال والجنوب بما في ذلك بلاد آشور، ومن خلال المعلومات المتوفرة لدينا يمكن أن نميز ثلاث مراحل رئيسة مرتّ بها بلاد آشور خلال هذا العصر.

أما المرحلة الأولى (من سقوط أور في حدود عام ٢٠٠٦ ق.م وحتى عام ١٨١٤ ق.م)، فإن معلوماتنا عنها قليلة، وفي الغالب غامضة، ولا تعدو أحيانًا أسماءَ بعض الملوك

والحكام وأعمالهم العمرانية، كما وردت في جداول الملوك الآشوريين التي دُوّنت في فترة متأخرة وكذلك في بعض نصوص الأبنية التذكارية، إضافة إلى ذلك، لدينا بعض المعلومات المستقاة من النصوص المكتشفة في المستوطنة التجارية الآشورية في منطقة كيدوكيا في آسيا الصغرى. ويستفاد من أحد النصوص المسمارية أن أحد الملوك الآشوريين وهو الملك ايلوشوما (حوالي ١٩٦٢ _ ١٩٤٢ ق.م) كان من القوة إلى درجة أنه قام بحملة على بلاد بابل، ربما للسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى بلاد عيلام والخليج العربي، سالكًا الطريق الواقع إلى الشرق من نهر دجلة. وادّعى ايلوشوما إنه "حرر مدينتي أور ونفر" اللتين كانتا تقعان على الطريق التجاري إلى الخليج العربي. وتنقطع معلوماتنا عن بلاد آشور في الحقبة التالية، وربما وقعت تحت نفوذ مملكة اشنونا شرقي بلاد بابل، ومع الغموض الذي يكتنف تاريخ بلاد آشور في هذه الملحة، فقد جاءت معلومات غزيرة وهامة عن علاقات بلاد آشور التجارية مع شرقي بلاد الأناضول وذلك من النصوص المسمارية المكتشفة في منطقة كيدوكيا في موقع كانش (كول تبه حاليًا). فقد أشارت هذه النصوص التي دُونت باللغة الأكدية إلى وجود جماعات من التجّار الآشوريين كانت تقطن في شرقي بلاد الأناضول في مراكز تجارية ذات تنظيمات إدارية وقانونية خاصة بها. وكان كلُّ مركز تجاري من هذه المراكز يُدْعى كاروم. وكان تجّار الكاروم يمارسون مختلف الأعمال التجارية، ويقومون بدور الوسيط بين الدولة الآشورية الأم وبين الدويلات المحلية في بلاد الأناضول، فكانت القوافل التجارية الآشورية تذهب محملة بالمنسوجات والملابس الآشورية والبابلية وخامات القصدير، التي كانت تستورد أصلاً، وتعود إلى بلاد آشور بالذهب والفضة والنحاس (ربما الرصاص) والأحجار الكريمة.

ولا توضّح المعلوماتُ المتوفرة حاليًا طبيعة العلاقة بين هذه المراكز التجارية وبين الدويلات المحلية والدولة الآشورية الأم. ويبدو من طبيعة أعمال هذه المراكز إنها كانت خاضعة سياسيًا لأمراء الدويلات المحلية مع تمتعها بنوع من الاستقلال الذاتي والحماية العسكرية مقابل ضرائب معينة كانت تُدفع للأمراء المحليين. أما علاقة هذه المراكز مع الدولة الآشورية فيبدو إنها كانت علاقة الفرع بالأصل حيث كانت تدين بالديانة الآشورية وتتبع نظم وتقاليد وقوانين الدولة الآشورية وتعيش حياة الآشوريين مع بعض التأثيرات

المحلية، تؤيد ذلك الاتفاقات والعقود التجارية والقوانين الآشورية المكتشفة في كانش والتي تشابه ما كان معروفًا في بلاد آشور الأصلية. ومن الطبيعي أن وجود هذه المراكوز في بلاد الأناضول كان عاملاً في نقل العديد من العناصر الحضارية الآشورية إلى بلاد الأناضول ولعل أبرز مثال على ذلك هو استخدام الخط المسماري لكتابة اللغة الحثية فيما بعد.

ويبدو أن الظروف التي ساعدت على نشوء هذه المراكز وازدهارها في الربع الأول من الألف الثاني قبل الميلاد قد تغيرت باتجاه معاكس حيث عمّ بلاد الأناضول فترة من الارتباك السياسي نتيجة تحركات الأقوام الهندو _ أوربية، وتدفقها إلى بلاد الأناضول، فأنهارت الكيانات السياسية المحلية، وتدهور نشاط هذه المراكز التجارية وانحسر، فكانت نهايتها مما أثر كثيرًا على الحياة الاقتصادية في بلاد آشور، ودخولها في فترة تدهور اقتصادي.

تبدأ المرحلة الثانية من تاريخ الآشوريين في عصرهم القديم بانتعاش اقتصادي وسياسي ملحوظ في أعقاب فترة التدهور والاضمحلال، وتمكن (شمشي سادد) الأول، أحد زعماء الأموريين، وهم من الأقوام التي سيطرت على الأوضاع السياسية في معظم الدويلات البابلية التي قامت في بداية العصر البابلي القديم، من تأسيس سلالة جديدة في بلاد آشور وذلك عام ١٨١٤ ق.م استمرت تحكم بلاد آشور بشكل مستقلّ إلى أن قضى على استقلالها الملك البابلي حمورابي. وتشير المعلومات المستقاة من النصوص المسمارية، ولاسيما تلك المكتشفة في مدينة ماري على أواسط الفرات، إلى قوة شخصية (شمشي _ ادد) وحنكته السياسية حيث تمكن من تأسيس دولة سيطرت على المنطقة الشمالية والغربية من العراق، وضمّ إلى دولته مملكة ماري، وعيّن ابنه الأصغر نائبًا له فيها. وكانت علاقات الدولة الآشورية مع مملكة كركميش وقطنة في شمال سوريا علاقات ودية ضمنت علاقات تجارية نشطة، في حين كانت العلاقات مع مملكة يمخد، التي كان مركزها مدينة حلب، علاقات عدائية لوقوف الأخيرة إلى جانب حكام مملكة ماري السابقين. كما تمكن)شمشي _ ادد) من بسط نفوذه وسيطرته على المنطقة الشرقية من بلاد آشور، وقام بعدة حملات على القبائل الكوتية والتوركية فيها. عاصر (شمشي _ ادد) في سنواته العشر الأخيرة الملك

البابلي حمورابي، وكانت علاقاته معه ودّية، وبعد وفاته اعتلى العرش الآشوري ابنه (اشمي ـ داكان) الذي حكم فترة تقرب من أربعين عامًا، غير إنه لم يتمكن من المحافظة على حدود الدولة التي كان والده قد أسسها، فانسلخت بعض الأقاليم عن سلطته وعُقد حلف بين مملكة يمخد ومملكة اشنونا ضده، وكان حمورابي يعمل آنذاك لتوحيد جميع الدويلات وضمّها إلى دولة مركزية واحدة مركزها بابل فاصطدمت سياسته مع آشور وغيرها من الدويلات المستقلة، وتمكن أخيرًا من القضاء على استقلالها وضمّها الواحدة بعد الأخرى إلى حدود مملكته.

ودخلت بلاد آشور المرحلة الثالثة من تاريخها القديم عندما أصبحت تابعة للسلطة في بابل. ومعلوماتنا عن هذه المرحلة قليلة نسبيًا وربما استقلت آشور بعد وفاة حمورابي غير أن الوضع فيها كان مرتبكًا ونفوذها مقصورًا على حدود بلاد آشور الأصلية إلى أن اعتلى بوزور ـ آشور الثالث عام ١٥٢١ ق.م العرش الآشوري، والذي يؤشر عهده بداية عصر جديد في بلاد آشور.

ثالثًا: العصر الآشوري الوسيط (١٥٢١ -٩١١ ق.م)

شهدت بلاد آشور خلال عصرها الوسيط الذي دام أكثر من ستة قرون أحداثًا هامة وتقلبات وتغيرات سياسية وعسكرية واجتماعية وحضارية غاية في الأهمية، فمن الضعف إلى القوة، ومن التدهور الاقتصادي إلى الانتعاش والرفاهية، ومن الجمود والركود الحضاري إلى الازدهار، ومن التبعية والاحتلال إلى السيادة والعكس، ونظرًا لكثافة الأحداث والتقلبات التي وقعت في هذا العصر فإنه من الصعب على الباحث أن يتحدث عن صفات وسمات العصر بشكل عام بل عليه أن يميز بين مراحله المختلفة.

كانت معظم أسباب وعوامل التقلبات الجذرية في حياة الآشوريين نتيجة متوقعة لما كان يحدث في منطقة الشرق الأدنى القديم في هذه الحقبة حيث كانت بلاد آشور جزءًا من المنطقة تتأثر بما يحدث فيها وتؤثر أحيانًا في وقوع الأحداث، حتى تبلورت السياسة الآشورية، وعظمت قوتها، وغدت القوة المؤثرة الأولى في الشرق الأدنى القديم وذلك في العصر الآشوري الحديث.

ولكي نفهم مركز بلاد آشور وسياستها خلال العصر الآشوري الوسيط لابد من إلقاء نظرة خاطفة على الأوضاع السياسية العامة في منطقة الشرق الأدنى القديم. ففي بلاد بابل، التي كانت آشور خاضعة لنفوذها في عصرها القديم، كانت الجيوش الحيثية الغازية قد اجتاحتها وتركتها لقمة سائغة لاحتلال الكشية القادمة من المنطقة الجبلية في الشرق. وقد حاولت بلاد آشور جاهدة أن تحافظ على علاقاتها مع السلالة الكشية الحاكمة ريثما يتم لها تقوية جبهتها الداخلية وحدودها الخارجية الأخرى لتعيد النظر في سياستها مع الملوك الكشيين. وفي شمال سوريا وآسيا الصغرى كانت الأقوام الحيثية الهندو ـ أوربية قد سيطرت على المنطقة، وأقامت لها إمبراطورية مترامية الأطراف واسعة النفوذ والأحلام، وفي مصر قامت المملكة المصرية الحديثة، بعد إخراج الهكسوس منها، بسياستها الجديدة الرامية إلى السيطرة على مصادر المواد الخام والطرق التجارية في سوريا، فاصطدمت مصالحها مع مصالح الإمبراطورية الحثية فكانت سوريا مسرحًا دمويًا للصراع بين هاتين القوتين دام عشرات السنوات. وكان من القوى الجديدة التي ظهرت في هذه الفترة وأثرت كثيرًا على بلاد آشور الأقوام الحورية أصلاً من منطقة القوقاز، وانتشرت في بلاد الأناضول وسوريا وأعالي ما بين النهرين وشرقي بلاد آشور، وأقامت لها دولة قوية عرفت بالدولة الميتانية، وقد استغلت الدولة الميتانية ضعف الإمبراطورية الحثية وانقساماتها الداخلية فمدّت نفوذها لتشمل جميع المناطق الواقعة ما بين بحيرة (وان) وحتى أواسط نهر الفرات ومن جبال زاجروس وحتى الساحل السوري، وكانت بلاد آشور من المناطق التي وقعت تحت نفوذها وسيطرتها المباشرة. وعلى الرغم من ذلك، فقد ذكرت جداول الملوك الآشوريين أسماءَ عدد من الملوك الذين حكموا في بلاد آشور في فترة سيطرة الدولة الميتانية وربما كانوا ملوكًا محليين تابعين للملوك الميتانيين المحتلين.

إن المعلومات الرئيسة المتوفرة عن الدولة الميتانية وعن علاقاتها مع الدول المعاصرة لها مستمدة من النصوص المكتشفة في مصر في موقع العمارنة والمعروفة برسائل العمارنة، وتمثل هذه النصوص رسائل ملكية مدونة بالخط المسماري واللغة الأكدية تبادلها حكّام وملوك الحيثيين والميتانيين والكشيين مع فرعون مصر اخناتون، وتشير الرسائل إلى أن علاقة مصر مع الدولة الميتانية كانت ودية وقد ختمت بمصاهرة سياسية، وأن حقيقة كتابة

هذه الرسائل بالخط المسماري واللغة الأكدية، على الرغم من عدم تمتع كل من بلاد بابل أو آشور بقوة مهيمنة في هذه الفترة تستطيع فرض استخدام اللغة الأكدية وخطها المسماري على البلدان الأخرى، يشير إلى قوة الحضارة العراقية القديمة ومدى تأثيرها في الدول والممالك المعاصرة حتى استخدمت لغتها لغة التفاهم بين الحكام والملوك الذين اختلفت لغاتهم، أي إنها كانت أشبه باللغة الدبلوماسية.

غير أن قوة الدولة الميتانية لم تستمر طويلاً حيث انتابها الضعف وانقسمت إلى دولتين مستقلتين، سيطرت الأولى منهما على منطقة بحيرة وان، في حين ظلت الأخرى تسيطر على بلاد آشور وأجزاء من سوريا وقد استغلت بلاد آشور هذا الضعف والانقسام، كما استغلت العداء بين الميتانيين والحيثيين ونبذت عنها احتلال الميتانيين واستقلت عن نفوذهم، فتقلصت الدولة الميتانية لتصبح دولة صغيرة محصورة بين أعالي ما بين النهرين وقد عرفت في النصوص المسمارية باسم خاتي كلبات، وفي فترة لاحقة تمكن الآشوريون من القضاء نهائيًا على دولة الميتانيين وإلحاق أراضيها بالدولة الآشورية. وكان من الطبيعي أن يترك الميتانيون بعض التأثيرات الحضارية على بلاد آشور، وتظهر تلك التأثيرات في أسماء الأعلام وبعض المعاملات التجارية في حين كان تأثير الحضارة الآشورية عليهم كبيراً جداً شمل معظم الأوجه الحضارية كما تشير إلى ذلك النصوص المكتشفة في منطقة نوزي وما حولها (قرب كركوك) والتي تمثل أكثر التأثيرات الحورية وضوحًا وكذلك النصوص المكتشفة في تل الفخار لأنها مشابهة لنصوص نوزي لقد استوجب التخلص من الاحتلال الميتاني لبلاد آشور إضافة إلى ملاءمة الظروف الدولية التي أشير إليها، تقوية الجبهة الداخلية وإعدادها لمواجهة القوات المحتلة كما استوجب توفر قيادة مركزية حكيمة، وهذا ما وفره الملك آشور أبوالط (١٣٦٥ _ ١٣٣٠ ق.م) الذي تمكن من إعادة بناء الدولة الآشورية وتقويتها حتى غدت قوة يحسب حسابها في أنحاء المنطقة.

وتشير بعض الرسائل الملكية المتبادلة بين الفرعون المصري من جهة والملك الآشوري والملك الكشي من جهة ثانية إلى أن علاقة مصر بالدولة الآشورية كانت علاقة صداقة متكافئة على الرغم من محاولات الملك الكشي الحاكم في بابل تقويض تلك الصداقة لكي تتاح له فرصة السيطرة على بلاد آشور أيضًا، غير أن تعاظم قوة الدولة الآشورية قد غيّر من

سياسة الكشيين اتجاههم، واختار الكشيون سياسة التعايش السلمي، فعقدت معاهدة صداقة بين الطرفين ثبتت بموجبها الحدود بين الدولتين، وختمت المعاهدة بمصاهرة سياسية تزوج بموجبها ولي العهد الكشي من ابنة الملك الآشوري، وكان لهذه المعاهدة أثرها السياسي في الأحداث التي وقعت فيما بعد. ويبدو أن الصداقة بين الآشوريين والسلالة الكشية لم تلق التأييد المطلوب، فوقعت مؤامرة في البلاد الكشي أودت بحياة صهر الملك الأشوري ونصبت بديلاً عنه، مما اضطر الملك الآشوري للتدخل المباشر والقضاء على المؤامرة ونصب حفيده من ابنته ملكًا على بلاد بابل. وبعد وفاة الملك الأشوري تغيرت سياسة الملك الكشي وادّعى بالعرش الآشوري لنفسه باعتباره حفيد الملك الآشوري، فاندلعت الحرب بين الطرفين واستمرت فترة من الزمن، ولم تكن نهايتها حاسمة غير أنها أضعفت كلا الجانبين، وكان من نتائجها أن وقعت بلاد بابل ثانية فريسة للغارات العيلامية القادمة من الشرق.

توالى على حكم بلاد آشور عدد من الملوك الأقوياء استمر في عهدهم نمو وتزايد قوة الدولة الآشورية ووضوح سياستها، وكانت بلاد آشور منذ ذلك الحين فصاعداً مهددة بالأخطار من جبهاتها المختلفة حيث كانت القبائل والأقوام المجاورة لها تعمل على تقويض سلطتها وكان على الملوك الآشوريين أن يعملوا جاهدين لمواجهة تلك الأخطار والمحافظة على سيادة واستقلال دولتهم، وقد خلفت تلك التحديات قادة عظامًا وجيشًا قويًا ذا خبرة في الممارسات العسكرية، وكان من بين القادة هؤلاء الملك شليمنصر الأول (١٢٧٤ - ١٢٤٥ق.م) الذي تميز عهده بالحملات العسكرية المتتالية على الأقوام الجبلية وعلى مملكة أورارتو (أرمينيا) ومملكة خاتي كلبات الميتانية التي ألحقت أراضيها بالدولة الآشورية، وكان من أعماله العمرانية تأسيس مدينة كلخو (نمرود) عاصمة له، وخلفه في الحكم توكلتي ننورتا الأول (١٢٤٤ - ١٢٠٨ ق.م) الذي أتبع السياسة نفسها في حملاتها العسكرية وتأمين حدوده الشمالية والغربية، ونهج سياسة تهجير سكان الأقاليم والبلدان المتمردة إلى أماكن أخرى وهي السياسة التي سار عليها الملوك الآشوريون من بعده، أما بالنسبة لبلاد بابل، فقد ساءت العلاقة بين الآشوريين والكشيين، وانتهت بدخول بلاد بابل تحت النفوذ الآشوري المباشر، غيرأن السنوات الأخيرة من حكم توكلتي ننورتا الأول تبدو غامضة

وربما وقعت مؤامرة داخلية أربكت بلاد آشور فدخلت في فترة ضعف واضمحلال وتقلصت حدود الدولة إلى أدناها حتى أن الملوك الآشوريين لقبوا أنفسهم بقلب "أشاكو" أي الحاكم. وقد شهدت هذه الفترة نهاية السلالة الكشية وقيام سلالة جديدة في بلاد بابل عرفت بسلالة ايسن الثانية كما سبق ذكر ذلك، وفي عام ١١١٥ ق.م اعتلى العرش الآشوري الملك تجلاتبليزر الأول وحصلت بلاد آشور في عهده على بعض التقدم والانتعاش واستطاعت أن تعيد بعض قوتها السالفة، وقد تمكن تجلاتبليزر من القضاء على الأخار المحدقة بالدولة الآشورية كأقوام المشكو الفريجيين التي كانت تتدفق بمجموعات كبيرة من آسيا الصغرى والقبائل الجبلية التي كانت تمدها بالعون، والمدن السورية التي كانت تعرقل تجارة آشور، والقبائل الآرامية في الغرب التي كانت تغير على حدود الدولة الآشورية الغربية، غير أن فترة الانتعاش والقوة العسكرية هذه انتهت باغتيال تجلاتبليزر، فدخلت بلاد آشور ثانية في فترة ضعف وارتباك سياسي واقتصادي دامت حتى نهاية العصر الآشوري الوسيط عام ٩١١ ق.م.

وقبل أن نختم عن العصر الآشوري الوسيط لابد من الإشارة هنا إلى التمازج الحضاري الذي أفرزته العلاقات الآشورية ـ البابلية خلال هذا العصر، فقد كان لوقوع بلاد بابل تحت النفوذ الآشوري المباشر أثره في تركيز هذا التمازج ونقل العديد من العناصر الحضارية من وإلى بلاد آشور ـ ومن الأمثلة البارزة على ذلك بعض المواد القانونية التي تمّ التعرف عليها مدوّنة على عدد من ألواح الطين عثر عليها في مدينة آشور يظهر إنها ترقى بتأريخها إلى العصر الآشوري الوسيط، وعلى الرغم من أن هذه الألواح في حالة رديئة جداً إلا أنها ذات أهمية خاصة لأنها النموذج الوحيد المكتشف حتى الآن للقوانين الآشورية، ويستدل من ترجمتها وتحليل ما ورد فيها من مواد وأحكام بأنها لا تمثل قوانين رسمية صادرة من سلطة مركزية بل إنها مجموعة من السوابق القضائية نظرت فيها المحاكم الآشورية مع مقتطفات من القوانين التي كانت سائدة في بلاد آشور، ومع ذلك فإن ما ورد فيها من مبادئ وأحكام يشابه إلى حد كبير ما ورد في القوانين البابلية في عهد حمورابي والعهود السابقة له مع بعض التعديلات والإضافات التي تمثل خصوصية بلاد آشور إلى درجة ظنّ البعض بأن الآشوريين كانوا يطبقون قانون حمورابي على بلاد آشور نفسها،

وهذا يفسر عدم عثورنا على قوانين آشورية كالقوانين البابلية، فمبدأ القصاص متبع في فرض الأحكام كما كان متبعًا في قانون حمورابي في حين كان يعمل بمبدأ التعويض في حالات معينة تمامًا كما كانت عليه الحال في القوانين البابلية، والعقوبات المفروضة على العديد من الجرائم الكبرى، كالسرقة والقتل والزنى، واحدة في كلّ من هذه المواد والمواد المماثلة لها في القوانين البابلية، وما يقال عن الأحكام والمبادئ ينطبق على التكوين الاجتماعي في كلّ من بلاد بابل وآشور حيث يلاحظ أن المجتمع العراقي القديم كان يتألف من طبقتين رئيستين، هما طبقة الأحرار وطبقة الرقيق وكان يميز بينهما في الأحكام والعقوبات والحقوق والواجبات، وكانت طبقة الأحرار تتألف من فئات عديدة يميز بعضها عن بعض المركز السياسي أو الاقتصادي أو الديني، وكان التفاوت بين هذه الفئات كبيراً غير أنها كانت جميعًا تعامل معاملة الأحرار عند تطبيق القوانين خلافًا لطبقة الرقيق التي كانت تحكمها أحكام وقوانين خاصة بها.

رابعًا: العصر الآشوري الحديث (العهد الإمبراطوري) (٩١١- ٦١٢ ق.م)

يمكن عدّ عام ٩١١ ق.م، وهو العام الذي اعتلى فيه الملك (ادد _ نراري) الثاني العرش الآشوري، بداية عصر جديد دام حتى نهاية كيان الآشوريين وبازدهار حضارتهم وامتداد نفوذهم حتى شملت حدود دولتهم معظم أقاليم الشرق الأدنى القديم، فكانت بذلك من أعاظم الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم، ومع ذلك، تخللت العصر فترات من الارتباك السياسي والانكماش العسكري كان آخرها إيذانًا بسقوط الدولة الآشورية.

وتزداد أهمية هذا العصر، في الوقت الحاضر، بكثرة المخلفات المادية التي تركها لنا (والتي تحتل مكان الصدارة بين الآثار العراقية المكتشفة وتزدان بها أشهر متاحف العالم. وإلى هذه المخلفات يرجع الفضل في تعرفنا تفصيليًا على تاريخ العراق بوجه خاص وتاريخ الشرق الأدنى القديم بوجه عام خلال حقبة جاوزت ثلاثة قرون، ومن بين الآثار الآشورية المكتشفة العديد من المدن المهمة، ومنها العواصم الآشورية آشور ونينوى ونمرود (كلخو) وخرسباد (دور _ شروكين)، المزدحمة بقصورها الفخمة وما بعدها الكبيرة وزقوراتها الشاهقة وأسوارها وبواباتها وأبنيتها المختلفة الأخرى، والتي تعكس لنا جانبًا من

جوانب عظمة الآشوريين ونضوج حضارتهم ورقيها، كما تشمل المخلفات المئات بل الآلاف من القطع الفنية الرائعة من تماثيل آدمية وحيوانية وثيران مجنحة تجمع بين حكمة الإنسان وعقله وقوة الثور وثباته، ومسلات مختلفة الأشكال والأحجام وألواح جدارية منحوتة نحتًا بارزًا تزين مداخل وجدران القصور والمدن، وتنقل لنا مشاهد مختلفة من حياة الملك في بلاطه ومعاركه العسكرية واحتفالاته الدينية إضافة إلى بعض جوانب الحياة الآشورية اليومية، وتعبر هذه المنحوتات وغيرها من القطع العاجية والمعدنية الرائعة عن رفعة في الفن ودقة في التعبير واستيعاب لفن النحت والتشريح، غير أن أهم ما تمّ الكشف عنه من آثار هذا العصر هي النصوص المسمارية الكثيرة المتنوعة والمدونة باللغة الأكدية بلهجتها الآشورية الحديثة، وقد تجاوزت أعداد هذه النصوص عشرات الآلاف وهي في ازدياد مستمر طالما استمرت التنقيبات الأثرية في المدن الآشورية، ومن هذه النصوص ما هو مدون على اسطوانات أو مواشير فخارية كانت توضع في أسس الأبنية كنصوص تذكارية، ومنها ما هو مدون على ألواح من الطين ذات أشكال وأحجام مختلفة، وقد تضمنت هذه النصوص، ولاسيما النصوص التذكارية، تفاصيل دقيقة عن الأعمال العسكرية والعمرانية التي قام بها الملوك الآشوريين خلال سني حكمهم في حين تضمنت الألواح الطينية، وفي مقدمتها الألواح المكتشفة في مكتبة آشور بانيبال الشهيرة، مختلف المواضع الدينية والأدبية والإدارية والاقتصادية والتاريخية وغيرها، فكانت بذلك سجلاً حافلاً بالحياة العراقية القديمة من مختلف جوانبها، وتشير جميع الدراسات التي عكفت على ترجمة وتحليل هذه النصوص والآثار على المدى البعيد الذي وصلته الإمبراطورية الآشورية في مضمار القوة والسلطة والنفوذ حتى غدت سيدّة الموقف في الشرق الأدنى القديم قاطبة خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، كما تشير إلى الازدهار الحضاري والرفاه الاقتصادي الذي عمّ بلاد آشور خلال هذه الحقبة وترك آثاره الواضحة في المنطقة حتى بعد زوال كيان الآشوريين السياسي، وقبل متابعة تطور الأحداث السياسية والعسكرية التي شهدها العراق خلال العهد الآشوري الحديث لابد من التوقف قليلاً نتعرف على أهم الأسباب والعوامل التي ساعدت على قيام الإمبراطورية الآشورية، وهيأت الظروف المناسبة والمناخ الملائم لنموها وتعاظمها وازدهار حضارتها، فليس منطقيًا

أن يفترض أن ما حققه الآشوريون من انتصارات عسكرية متلاحقة ونمو مطرد في القوة وازدهار في الحضارة كان حدثًا فجائيًا غير متوقع أملته أحداث عابرة أو قوة عسكرية مؤقتة بل لابد وأن كانت وراء ذلك أسباب وعوامل عدة منها داخلية ومنها خارجية ساهمت في بلورة الأحداث لمصلحة الآشوريين، ومن هذه الأسباب ما يمكن التعرف عليها أو استنتاجها من خلال دراسة وتحليل ما تم الكشف عنه من آثار ونصوص ومن متابعة تطور الأحداث في المنطقة، ومنها ما يبقى غائبًا عنا حتى تكشف لنا عنه التنقيبات الأثرية والدراسات الموضوعية المقبلة. ولعل في مقدمة الأسباب الخارجية الظاهرة التحديات التي واجهت الدولة الآشورية في مختلف جبهاتها، وهددت كيانها المتنامي، وأنذرت بزوالها إن لم تتخذ الاحتياطات اللازمة للحد من أخطارها.

إن استعراضًا سريعًا للأوضاع السياسية العامة في منطقة الشرق الأدنى القديم في مطلع الألف الأول قبل الميلاد يوضح أن القوى الكبرى التي كانت تتحكم في توجيه الأحداث خلال العصر الآشوري الوسيط والمتمثلة بالإمبراطوري الحيثية في آسيا الصغرى وشمال سوريا والدولة الميتانية في أعالي ما بين النهرين والدولة الكشية في بلاد بابل والمملكة المصرية، كانت قد اختفت من على المسرح السياسي والعسكري أو زال تأثيرها أو انكمش وتقلص، غير أن ذلك لا يعني أن الدولة الآشورية انفردت في بداية عصرها الحديث بالقوة والزعامة وفتحت أمامها الأبواب والسبل للهيمنة على أرجاء المنطقة، بل إن زوال القوى القديمة كانت نتيجة لظهور قوى أخرى جديدة أشد خطرًا وأكثر تأثيرًا ولاسيما على الدولة الآشورية، ففي الجهة الغربية، زاد ضغط القبائل الآرامية وغاراتها على حدود بلاد آشور الغربية، والآراميون من القبائل الجزرية التي كانت جوالة في بوادي الشام والعراق في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، كما انتشرت هذه القبائل في أنحاء سوريا وأقامت لها منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد عددًا من الدويلات والممالك الصغيرة كان منها دويلة ارام نهرايم، فيما بين الخابور والفرات، وفدان ارام، ومركزها مدينة حران، وارام صوبا، في الجنوب، ومملكة دمشق ودويلة سمعل (سنجرلي) وغالبًا ما كانت هذه الدويلات والممالك تشكل أحلافًا سياسية وعسكرية للوقوف ضد الدولة الآشورية والحدّ من نشاطها وقطع مواصلاتها التجارية في حين كانت دويلتا إسرائيل ويهوذا تقومان

بدورهما في مثل هذه الأحلاف وتتلقيان المساعدات من الفرعون المصري الذي ضاق بسيطرة الآشوريين على المنطقة.

وفي الجبهة الشمالية والشمالية الشرقية كانت ضغوط الأقوام أو القبائل الجبلية على أشدها، وكادت تقضي على الدولة الآشورية لولا عزم وثبات القوات الآشورية وصلابتها، فكان من سياسة هذه القبائل والأقوام تحين الفرص للانقضاض على المدن والمراكز الحضارية متى سنحت لها الفرصة لذلك ومتى وجدت ضعفًا من الحكومة المركزية، وكان من جملة المناطق المتمردة ضد الدولة الأشورية منطقة زاموا (وادي السليمانية) وإقليم تشخان (جنوب شرقي تركيا) ودولة اورارتو وبلاد نائيري ومنطقة القبائل الميدية، ولم تكن السيطرة على هذه المناطق الجبلية الوعرة بالامر اليسير بل كانت من الأمور الصعبة التي شغلت الحكام الآشوريين وقطعاتهم العسكرية سنين طويلة وانهكت قواها.

وفي بلاد بابل، كانت قبيلتا كلدو وبيت ياقين وغيرهما التي اتجهت نحو جنوب العراق وأقامت لها أحيانًا سلالات محلية في أقصى الجنوب تسعى دائمًا للسيطرة على بلاد بابل التي وقعت تحت النفوذ الآشوري أخيرًا، وكانت السلالة الحاكمة في بلاد عيلام جنوبي غربي إيران تقدم لها العون المادي والعسكري وتضمن لها الملجأ متى ضيقت عليها الدولة الآشورية، وقد تمكن الآشوريون من القضاء على السلالة الحاكمة في بلاد عيلام أخيرًا وبسطوا نفوذهم المباشر على بلاد بابل وحدوا ولو لفترة مؤقتة من نشاط تلك القبائل.

وهكذا كان على الآشوريين أن يعملوا من أجل تثبيت أركان إمبراطوريتهم، وحماية حدودهم لمواجهة التحديات والقضاء على الأخطار وذلك من خلال تجهيز الحملات العسكرية المتتالية إلى الجبهات المختلفة حتى لا يكاد يخلو عهد أي ملك آشوري حكم في هذا العصر من حملة عسكرية أو أكثر إلى كل من الجبهات لإخضاع المتمردين والعصاة إلى درجة طغت الناحية العسكرية على حياة الدولة الآشورية بصورة عامة، غير أن مجرد القيام بالحملات العسكرية لا يمكن أن يحقق الأهداف المتوخاة إن لم ترافقها سياسة حكيمة ثابتة وقيادة عسكرية حازمة وقطاعات عسكرية على مستوى عال من التنظيم والتدريب ونظام إداري كفء يسيطر على الأوضاع الداخلية ويؤمن إدارة الأقاليم والبلدان المفتوحة.

فأما السياسة الآشورية، فكانت بحق على درجة كبيرة من النضج وبُعد النظر حيث لم تكن أية حملة عسكرية مهمة تجهز إلى جبهة ما إلا بعد دراسة مستفيضة لجميع الأوضاع الداخلية والخارجية للمنطقة المزمع توجيه الحملة عليها، كما كانت تسبق كل حملة اتصالات مكثفة مع أمراء وحكام الأقاليم والبلدان المجاورة لضمان ولائهم للسياسة الآشورية وتأمين الطرق والمسالك المؤدية إلى الهدف، وقد تعقد المعاهدات مع الحكام والأمراء المحليين وتوثق من أجل تمتين العلاقة كما كان رجال الاستخبارات الآشوريون المنتشرون في المنطقة يبعثون بتقاريرهم التفصيلية حول الأوضاع العسكرية والشؤون الداخلية للمنطقة قبل أن توجه الحملة إليها وقد وردت العديد من أخبار هذه التقارير، ولاسيما تلك الخاصة بحملة سرجون الثامنة على دولة اوراتو وزكرتو، وقد يضطر الملك إلى إيقاف الحملة قبل بدئها أو في أثناء تقدمها، كما فعل سرجون في حملته على بلاد بابل من أجل معالجة موقف طارئ في جبهة أخرى، وقد يقدم بعض التنازلات المؤقتة في جبهة معينة من أجل تحقيق هدف أبعد في الجبهة الأخرى، كل ذلك وفق سياسة مدروسة من قبل الملك الحاكم وقادة جيشه وحكام مقاطعاته.

وكانت قيادة الحملات تعتمد على أهمية الحملة وحجمها، وقد يتولى قيادتها الملك نفسه إن كانت ذات أهمية خاصة في حين كان يتولى قيادة الحملات الأقل أهمية أحد القادة العسكريين أو أحد حكام المقطعات وقد ذكرت النصوص المسمارية ألقاب ورتب كبار القادة العسكريين والأمراء أمثال الرابشاقة، وهي أعلى رتبة عسكرية، والترتانُ والراب موكي، كما وردت ألقاب بعض أمراء القطعات الصغيرة كالراب كصري وآمر الخمسين وآمر العشرة.. وتميز الجيش الآشوري بصلابة أفراده وشجاعتهم، وكانت المعارك الكثيرة التي خاضها الجيش في بيئات مختلفة وظروف متباينة قد أكسبته قدرة قتالية عالية وتدريبًا جيدًا وسرعة في الحركة، كما كان للشعور العام لدى عامة الناس بأن القيام بأية حملة عسكرية هو في الواقع تنفيذ لإرادة الآلهة القومية وأوامرها التي أوحتها إلى الملك أثره في رفع معنويات الجندي المقاتل من أجل إرضاء الآلهة، وكان كلٌ رجل قادر على حمل السلاح خاضعًا للتجنيد إذا ما أعلن الملك عن عزمه القيام بحملة عسكرية إلا إذا تمكن من الحصول على إعفاء من الخدمة العسكرية لسبب ما، وكان الجيش الآشوري يتألف من

الجيش النظامي والجيش الاحتياطي، فأما النظامي فكان جيشًا صغيرًا على أهبة الاستعداد للتحرك عند الحاجة ويتألف من القوات المختارة في الوسط وحولها قوات الصاعقة والحرس الملكي وأبناء الذوات الذين كانوا يركضون إلى جانب عربة الملك، في حين كان الجيش الاحتياطي من الجنود الذين تزودهم المقاطعات والأقاليم المختلفة وكان حاكم كل مقاطعة أو إقليم يقدم عددًا معينًا من المجندين يتناسب وعدد سكان الأقاليم ويزودهم بالسلاح، وربما كان كل إقليم مختصًا بصنف معين من صنوف الجيش، وربما كانت هذه القطعات تنظم وفق الأسس القومية والقبلية. وكانت صنوف الجيش الآشوري تضم المشاة بأسلحتها الخفيفة كالسهام والمقالع، والثقيلة كالرماح، وكان حاملوا الأسلحة الثقيلة يحمون أنفسهم بارتداء الزرد .. ويحملون تروسًا مستطيلة ويلبسون على رؤوسهم قبعة مخروطية ذات عرف أو ريشة على غرار خوذ الحب الإفريقية ويحملون بأيديهم سيوفًا قصيرة أو فؤوسًا أو دبابيس وينتعلون حذاءً طويلاً يغطي أسفل الساق، ومن الأصناف الأخرى الخيالة الخفيفة الحركة، وكان سلاح الفرسان الرماح الطويلة والفؤوس، كما استخدم الزرد لحماية الخيل، وكانت العربات الحربية ذات العجلتين والتي تجرها الخيول تستخدم لسرعة الحركة وكان كلّ منها يحمل ثلاثة أو أربعة مقاتلين. ومن الأسلحة الأخرى المستخدمة الكبائش الضخمة لدك الحصون والقلاع، ولا تشير المعلومات المتوفرة عن الجيش الآشوري والمستمدة بالدرجة الأولى من الحوليات الملكية والمنحوتات إلى حجم الجيش بصورة عامة غير أن بعض التقديرات الحديثة تضع عدده بين مائة ومائتي ألف مقاتل في المعارك الكبرى.

النظام الإداري

وكان النظام الإداري الذي طبقه الآشوريون، والذي وضح منذ عهد الملك تجلاتبليزر الثالث (٧٤٥- ٧٢٢ ق.م) متميزًا بكفاءته وتطوره، وربما كان من أهم العوامل التي ساعدت على نمو قوة الدولة الآشورية وضبط أمنها الداخلي، فقد اعتمد على تقسيم الإمبراطورية إلى عدد من المقاطعات أو الأقاليم الرئيسة كان كل منها يُدعى (بيخاتو) أو (ناكو) وكان يشرف على إدارة مقاطعة سيد المقاطعة (بيل بيخاتي) يمثل الملك في المقاطعة وينفذ أوامره وسياساته المركزية وكانت واجباته تشمل، إلى جانب المهام الإدارية العامة،

الشؤون المالية والعسكرية والدينية.. وكان مقر الحاكم في عاصمة المقاطعة ويساعده في إدارة شؤون المقاطعة كادر إداري كفء من الكتبة والمساحين والمحاسبين والرسل والفلكيين وقراء الفال وضباط التجنيد ومراقبي الأرواء والمساعدين العسكريين والمترجمين وغيرهم، كما كان له نائب ينوب عنه فترة غيابه، وكانت كل مقاطعة مقسمة بدورها إلى عدد من الوحدات الإدارية الأصغر يدعى كل منها قنو (ولعلها تعني حرفيًا "حلقة") وكان مركز القنو في المدن الرئيسية ويشرف على إدارتها موظف إداري يدعى (رئيس المدينة) راب لان.. وكانت له قوة عسكرية صغيرة للظروف الطارئة، وكانت من مهام الرئيسة جباية الضرائب وحفظ النظام واتخاذ الإجراءات العسكرية المستعجلة إضافة إلى الشؤون الإدارية العامة.

وكانت بعض المدن القديمة، كمدينة آشور التي كانت تتمتع بمركز ديني خاص، تدار من قبل مجلس من المسنين وعلى رأسهم الخزانو، وهو لقب ربما يقابل لقب المحافظ في الوقت الحاضر وكان لهذه المدن بالرغم من تبعيتها للقنو نوع من الاستقلال الذاتي وبعض الامتيازات الخاصة الممنوحة من الملك نفسه بموجب وثيقة خاصة تتعلق بالضرائب والخدمة العسكرية وغيرها، ومن جانب الحذر من احتمال تمرد وعصيان مثل هذه المدن المهمة، كان الملك يعين له حاكمًا ملكيًا فيها إلى جانب الخزانو يدعى "الرجل على المدينة"، ربما ليكون رقيبًا على حسن إدارة المدينة وأسلوب جباية الضرائب وتجنيد المجندين.

وعلى الرغم من السياسة المركزية التي اتبعها الملوك الآشوريون في إدارة شؤون إمبراطوريتهم إلا أنه كان لحكام المقاطعات ورؤساء المدن حرية الحركة والتصرف في أسلوب تنفيذ السياسة المركزية وإدارة شؤون وحداتهم الإدارية.

وكان لأي من الحكام والرؤساء والموظفين الحق بالاتصال المباشر بالبلاط الملكي دون المرور بالتسلسل الإداري المعروف إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك.

ولضمان الاتصال الدائم والسريع بين الملك وموظفيه في المقاطعات والمدن والوقوف على ما يجري في أرجاء الإمبراطورية، كان هناك نظام للمواصلات والبريد متطور جدًا سبق نظام البريد المنسوب إلى الفرس بعدة قرون، مما يدل على أن الفرس الاخمينيين قد

اقتبسوا نظام البريد من بلاد آشور إبّان غزوهم لبلاد بابل وآشور في القرن السادس قبل الميلاد وادخلوا عليه بعض الإضافات، وكان الاتصال بين المقاطعات المختلفة والعاصمة يتم من خلال رسل ممتهنين على أصناف عدة فهناك الرسول (في البابلية مارشبري) الذي كان يسافر على الطرق الملكية، وكانت تتوزع على تلك الطرق محطات بريدية تحت حراسة قوات حكومية دائمة وبين محطة وأخرى مسافة رحلة يوم أُعدت لراحة الرسل وراحة حيواناتهم أو تبديلها والتزود بالماء والغذاء.

ومن أصناف الرسل الراكض وربما كان يستخدم لاجتياز المناطق الجبلية الوعرة، وكان الرسل يحملون الرسائل مختومة أو يحفظونها عن ظهر قلب ضمانًا لسريتها.

أما أسلوب إدارة البلدان والأقاليم التابعة أو الموالية، فكان يختلف حسب طبيعة العلاقة التي تربطها بالدولة الآشورية، فالدول والممالك الصغيرة الموالية للدولة الآشورية، طوعًا أو خوفًا، كانت تعترف بسلطان الدولة الآشورية وتدفع الجزية مقابل امتياز الحماية العسكرية التي تفرها لها الدولة الآشورية عند حدوث أي اعتداء خارجي عليها أو تمرد داخلي ضد السلطة الحاكمة فيها، وإذا امتنعت هذه الدول والممالك من دفع الجزية أو سحبت اعترافها بالسلطة الآشورية أو عقدت حلفًا أو معاهدة مع دولة معادية للدولة الآشورية كان لابد من فرض سيطرة أقوى عليها ومهاجمتها عسكريًا وتغيير أميرها الحاكم بآخر موالٍ لسياسة الدولة الآشورية ومستعد لدفع الضرائب، وكان مثل هذا الارتباط يوثق بالمعاهدات ويختم بالقسم أمام الآلهة، وكان في مثل هذه البلدان التابعة موظف آشوري في البلاط المحلي مع قوة عسكرية صغيرة لدعمه، أما إذا حنث الحاكم بالقسم الذي أقسمه ونبذ عنه السلطة الآشورية عندها تتخذ الإجراءات العسكرية السريعة اللازمة للسيطرة الكاملة على المنطقة وإلحاقها بحدود الدولة الآشورية وإدارتها من قبل أحد حكام المقاطعات، وقد يُرحل سكانها إلى منطقة أخرى ويؤتي بسكان آخرين ضمانًا لهدوء المنطقة وعدم تمرها.

وهكذا كانت هذه العوامل مجتمعة من أسباب قوة الدولة الآشورية وتعاظم نفوذها في حين كان لسياسة الفتح التي اتبعتها أكبر الأثر في نشاط الحياة الاقتصادية وتدفق الأموال

على بلاد آشور مما ساعد على نشر الرفاهية وشجع على البناء والتعمير، كما كان لاحتكاك الآشوريين بسكان البلدان المفتوحة والبلدان المجاورة، كجزر البحر المتوسط وبحر إيجة، نتائجه في انتقال العديد من العناصر الحضارية من وإلى بلاد آشور، فكان هناك تمازج حضاري رائع تشهد له آثار الآشوريين المعمارية والفنية وتحكي عنه نصوصهم المسمارية.

ونظراً لطول الفترة الزمنية التي شغلها العصر الآشوري الحديث وكثافة أحداثها، فقد قسمت إلى فترتين رئيسيتين تمثل الأولى عهد الإمبراطورية الآشورية الأولى (من أواخر القرن العاشر وحتى أواسط القرن الثامن قبل الميلاد) في حين تمثل الثانية عهد الإمبراطورية الثانية (من أواسط القرن الثامن وحتى نهاية العصر الآشوري الحديث).

وعلى الرغم من عدم وجود انقطاع في السلالة الحاكمة، يمكن اعتبار تاريخ اعتلاء الملك (ادد ـ نراري) الثاني عام ٩١١ ق.م، (أو بداية عهد والده آشور ـ دان الثاني عام ٩٣٣ ق.م) بداية عصر جديد في تاريخ الآشوريين نظراً للانتعاش الاقتصادي والتوسع العسكري والازدهار الحضاري الذي تحقق بدءاً من هذا التاريخ مقارنة مع الفترة السابقة، كما وضحت السياسة الآشورية العامة، ولاسيما فيما يخص تجهيز الحملات العسكرية بهدف إخماد التمردات والفتن والقضاء على ضغوط القبائل التي كانت تغير على حدود الدولة، وهكذا بدأ ادد ـ نراري الثاني عهده بتجهيز حملة عسكرية إلى الأراضي الواقعة جنوبي الزاب بغية تثبيت مركز الدولة الآشورية عليها وضمان أمن وسلامة الطرق التجارية القادمة من الجنوب وبهدف إشعار سكان المنطقة وسكان بلاد بابل باستعادة الدولة لسالف قوتها، وقد حققت الحملة أهدافها وتمت السيطرة على مدينة الربخا (كركوك حالياً) وجعلت مقاطعة آشورية تابعة كما تم تثبيت الحدود بين بلاد بابل وآشور وعقدت معاهدة بين الطرفين بخصوص ذلك وكان لهذه المعاهدة أهمية خاصة بالنسبة لدراسة تاريخ الآشوريين في الفترة السابقة لعهد ادد ـ نراري حيث إنها تضمنت موجزاً لتاريخ المنازعات العسكرية بين بلاد بابل وآشور حتى ذلك التاريخ وتعرف هذه المعاهدة بالتاريخ التعاصري.

الحملات العسكرية

وفي الجهة الغربية حيث كانت القبائل الآرامية وحلفاؤها قد اقتطعت أجزاء من الأراضي الآشورية وسيطرت عليها، جهز ادد ـ نراري حملة عسكرية عليها وأخضعها وأعاد لبلاد آشور حدودها القديمة كما استولى على عدد من المدن على طول نهر الفرات وتوجه شمالاً حتى وصل إلى المنطقة التي كانت تعرف بمملكة خاتي كلبات وتمكن من القضاء عليها وأسر أميرها وضم أراضيها إلى حدود الدولة الآشورية.

ونهج توكلتي ننورتا الثاني (٨٩٠ ـ ٨٤٤ ق.م) السياسة نفسها التي أنتهجها أبوه من قبل، فبدأ بحملة على بلاد نائيري في الجنوب الغربي من بحيرة وان، وأخرى إلى المنطقة الواقعة بين الزابين، وثالثة إلى بلاد بابل حيث وصل إلى دور كوريكالزو وسبار دون معارضة تذكر، واستمر في زحفه غربًا فشمالاً حتى وصل نهر الخابور ومنطقة نصيبين، وأخيراً قام بهجوم على منطقة (مشكو) في آسيا الصغرى، وكان عهد آشور ناصر بال الثاني (٨٣٣- ٨٠٩ ق.م) عهد ازدهار حضاري وتفوق عسكري متميز حيث تشير النصوص المسمارية الكثيرة التي خلفها لنا إلى النشاط العسكري الكبير الذي شغل النصف الأول من حكمه.

ففي الجبهة الشرقية قام بحملة عسكرية ضمنت خضوع الأقوام الجبلية وامتداد النفوذ الآشوري إلى ما بعد حدودها السابقة كما جهزت حملتان لإخضاع منطقة زاموا (وادي السليمانية) وإقليم تشخان إلى الشمال الغربي من بلاد آشور وأمكن تثبيت السلطة الآشورية عليهما.

وفي جهة الغرب كانت دويلة بيتاديني، وعاصمتها بارسب (تل أحمر حاليًا) جنوبي كركميش، تقوم بإثارة الاضطرابات في المنطقة الخاضعة للنفوذ الآشوري على طول نهر الخابور وأعالي نهر الفرات فقام آشور ناصر بال بحملة عسكرية عليها وقضى على المدن المتمردة وفرض عليها الجزية، وفي هذه الأثناء قام الملك البابلي بمساعدة قبيلة سوخي في أواسط الفرات بالتحرك ضد النفوذ الآشوري مما استوجب توجيه حملة عسكرية عليها. وفي السنة التالية تمكن من الوصول إلى الساحل السوري حيث وصل الجيش الآشوري

حتى مدينة صور وفرضت الجزية على جميع المدن الواقعة على الطريق، وفي النصف الثاني من عهد آشور ناصر بال تمتعت الدولة الآشورية بسلام نسبي.

ونظراً لعدم توفر وسائل إعلامية متطورة في العهود القديمة، وبغية تخليد الانتصارات العسكرية التي حققها آشور ناصر بال فقد حاول، وكذلك فعل مَنْ جاء بعده من الملوك الآشوريين، أن يستخدم نصوص الأبنية التذكارية واللوحات التي كانت تزين القصور والقاعات ليعبر من خلالها عن القوة التي تمتعت بها قطعاته العسكرية في حملاتها المختلفة وعن الشدة والقسوة التي مارسها في معالجة كل تمرد أو عصيان، ومن الطبيعي أن أتصفت مثل هذه النصوص واللوحات بالمبالغة الواضحة في تقدير حجم الانتصارات والغلو في وصف الأساليب القاسية التي عومل بها رءوس التمرد والعصيان، شأنها في ذلك شأن معظم وسائل الإعلام الحربية حتى يومنا هذا وليكون ذلك عبرة لكل من تسول له نفسه القيام بأية محاولة مماثلة ضد السلطة الأشورية المركزية، غير أن بعض مؤرخينا المحدثين، ولاسيما الأوربيين منهم، غالوا في التركيز على ما جاء في هذه النصوص واللوحات، واعتقدوا أنها تمثل حقائق ثابتة لا مجال للشك في دقتها طالما إنها صادرة عن الملوك الآشوريين أنفسهم، فكونوا انطباعًا خاطئًا عن السياسة الآشورية وعن الأساليب العسكرية التي استخدمها الآشوريون في قمع التمردات والعصيان، فوصفوا سياستهم بالاستعمارية وأساليبهم بالوحشية وحكمهم بالظلم والطغيان دونه أن يأخذوا بنظر الاعتبار الأسباب التي دفعت الملوك الآشوريين للقيام بالحملات العسكرية وإتباعهم القسوة والشدة في قمع كل عصيان لدرء الأخطار المحدقة بدولتهم ومواجهة التحديات الأجنبية المتوقعة، وقد زاد في تركيز هذا الانطباع الخاطئ ما أورده كتاب أسفار العهد القديم التي تتطرق إلى تاريخ الآشوريين والبابليين والتي اتصفت بالكره والعداء والحقد والضغينة تجاه الآشوريين الذين قضوا على دويلة إسرائيل، والبابليين الذين قضوا على دويلة يهوذا. لذا، فإن ما تعكسه مثل هذه الأسفار لا يمثل وجهة نظر محايدة، وعلينا أخذ الحيطة والحذر إذا أردنا الإفادة من أخبارها، كما يجب مقارنة ما ورد في النصوص واللوحات الآشورية مع ما ذكرته نصوص أعداء الآشوريين من أخبار عن الأحداث نفسها وإخضاعها جميعًا للنقد العلمي للوصول إلى صورة أقرب ما تكون إلى الحقيقة، عندها سنجد أن الآشوريين لم يتصفوا بالبربرية

والوحشية والظلم والطغيان بل كانوا أشداء قساة في معالجة التمردات والعصيان والفتن والاضطرابات وخاصة في حالة تكرارها في منطقة معينة، والشدة والقسوة في معالجة مثل هذه الظروف لا تقلل من مركز أو سياسة أية دولة سواء كانت في التاريخ القديم أو في العصر الحاضر.

وإذا ما تركنا النشاطات العسكرية الكثيرة التي قام بها آشور ناصر بال جانبًا وجدنا أن نشاطاته العمرانية كانت أكثر خلودًا وروعة، فقد قام آشور ناصر بال بإعادة بناء مدينة نمرود (كلخو) واتخذها عاصمة للدولة الآشورية واستغرق بناؤها خمس سنوات واستخدم فيها الآلاف من العمال والفنيين المحليين، كما عملت فيها أعداد كبيرة من الحرفيين والفنيين الذين جيء بهم من المناطق والأقاليم المفتوحة ولاسيما من سوريا، وتم افتتاح المدينة عام ٨٧٩ ق.م في احتفال مهيب دُعي إليه ما يقرب من سبعين ألف شخص من مختلف المقاطعات والأقاليم والبلدان التابعة والصديقة واستمر الاحتفال عشرة أيام متتالية كما تخبرنا بذلك مسلة آشور ناصر بال نفسه المكتشفة في قصره عام ١٩٥١ والتي يقول فيها:

»أطعمت وأشربت الشعب من جميع البلدان سوية مع شعب كلخو لمدة عشرة أيام، وأعددت لهم الحمامات وقدرتهم ومن ثم أرسلتهم إلى بيوتهم بسلام وسرور«. وتعد الآثار المكتشفة في مدينة نمرود من أروع الآثار الآشورية وتعكس لنا المدى الذي وصله الفن المعماري والفني في القرن التاسع قبل الميلاد، فإلى جانب القصور الفخمة والمعابد الكبيرة والأسوار والبوابات التي تم الكشف عنها ورسمت مخططاتها كُشف عن المئات من الألواح الجدارية التي كانت تغلف جدران قاعات القصور الداخلية، وهي منحوتة نحتًا بارزًا دقيقًا بمشاهد مختلفة من الحياة الملكية والمعارك العسكرية والحياة اليومية وقد لون بعضها بألوان زاهية ظلت تحتفظ بها حتى يومنا هذا.

أما مداخل القصور والقاعات الرئيسة فقد زينت بتماثيل ضخمة لحيوانات مركبة عرفت بالثيران المجنحة تعبر عن قوة الآشوريين وحكمة وصلابة قادتهم، فإلى جانب قوة الثور الطبيعية حاول الفنان أن يعبّر عن ثباته وسيطرته على الأرض والسماء، فمثله بخمس أرجل وبأجنحة كبيرة في حين عبر عن الحكمة والمعرفة التي تميز بها الآشوريون بأن جعل

للثور رأس إنسان معبر عن هذه الصفات، وكانت الغاية من وضع الثيران المجنحة في المداخل الرئيسة هي حماية المبنى ومَنْ فيه من الشرور وإشعار الزائر ساعة دخوله بقوة ومنعة الدولة وملكها، كما عُثر على العديد من الملتقطات الأثرية الأخرى في نمرود كان من أبرزها القطع العاجية التي وُجدت في أحد آبار المدينة وكانت من بينها قطعة تمثل قناعًا لرأس فتاة جميلة عرفت لدى الباحثين بمونوليزة النمرود أو بفتاة البئر لدقة صنعها وعمق تعبيرها، إضافة إلى ذلك، كُشف عن أعداد من النصوص المسمارية المهمة وعلى مسلة الملك آشور ناصر بال وتمثال لخليفته شليمنصر الثالث والعديد من الملتقطات الأثرية الهامة الأخرى.

النشاطات العسكرية الآشورية في عهد شليمنصر الثالث

واستمرت النشاطات العسكرية الآشورية في عهد شليمنصر الثالث 824 -858)ق.م) خليفة آشور ناصر بال الثاني وتحول العديد من المدن الآشورية إلى حصون ومعسكرات كمدينة آشور ونمرود (كلخو). وتركزت نشاطات شيلمنصر العسكرية على الجبهة الغربية والشمالية الغربية، وهي أكثر الجبهات تهديداً لمصالح الدولة الآشورية الاقتصادية وأخطرها على أمنها. ففي بداية عهده تشكل حلف من كل من كركميش وبيت أديني وسمعل في الشمال الغربي هدد طرق المواصلات التجارية إلى آسيا الصغرى ومنطقة كيليكيا، وبعد أربع سنوات من بدء حكم شيلمنصر تمكن من دحر قوات الحلف وإلحاق دويلة عديني بالإمبراطورية الآشورية وفرض الجزية على الدويلات المتحالفة معها، وكانت هذه الانتصارات تهديداً لبقية الدويلات السورية بما فيها المدن الساحلية والجنوبية فسارعت إلى تشكيل حلف جديد تزعمته مملكة دمشق، واصطدمت القوات الآشورية مع قوات الحلف عام ٨٥٣ ق.م في قرقر على نهر العاصي وادعى شليمنصر بأنه قضى نهائيًا عليها ووقع نتيجة ذلك عشرات الآلاف من قوات الحلف قتلى غير أن الأحداث التالية لا تؤيد هذا الادعاء، حيث تجدد الصدام ثانية، أما بلاد بابل فكان ملكها موالياً للسياسة الآشورية غير أنه حدث انقسام في البلاط الملكي البابلي انتهى بقيام ثورة أهلية أيدتها القبائل الكلدية في الجنوب والمدن الواقعة في منطقة ديالي شرقي بلاد بابل مما اضطر الملك الآشوري إلى تجهيز حملتين عسكريتين على المنطقة أنهت التمرد وأعادت الأمن إلى بلاد بابل ووصلت القوات الآشورية إلى ساحل الخليج العربي لتأمين طرق التجارة.

ومرة ثانية توجه شيلمنصر نحو الغرب للقضاء على الدويلات الرئيسة التي كانت في الحلف السوري ضد الأشوريين، فدحر قوات دمشق وإن لم يدخل دمشق نفسها في حين قدم ياهو ملك إسرائيل وملوك صور وصيدا الجزية، وسارعت مصر إلى إرسال الهدايا. وفي السنوات الأخيرة من حكمه، تمكن شليمنصر من السيطرة على بعض الأقاليم في الشمال الغربي مثل إقليم تبال وقو وجعلهما من الأقاليم التابعة، وبذلك تمت السيطرة الكاملة على طرق المواصلات ومصادر المواد الخام، ومن النتائج الحضارية الهامة في هذه الفترة انتقال العديد من الطرز الفنية السورية إلى بلاد آشور إثر استخدام الفنيين والحرفيين السوريين في بلاد آشور نفسها، ولعل أوضح دليل على ذلك تحصينات المدن الآشورية.

وفي الجبهة الشمالية والشرقية كانت دولة اورارتو تغذي فيها الاضطرابات، مما اضطر الملك الآشوري إلى إرسال حملات تأديبية إلى المنطقة الجبلية ضمنت أمن وسلام منطقة أعالي ما بين النهرين وإقليمي تبال وقو (كيليكيا).

ويبدو أن السياسة العسكرية التي أتبعها شيلمنصر لم تلق التأييد الكامل داخل بلاد آشور، حيث حدث تمرد تزعمه أحد أبنائه، وأيدته العديد من المدن الآشورية المهمة مثل آشور ونينوى، فتولى ولي العهد شمشي ـ أدد الخامس مهمة القضاء على التمرد.

وقد استغرق ذلك أربع سنوات توفى خلالها شيلمنصر، فاستمر شمشي ـ ادد بمهمته بعد اعتلائه العرش وساعدته في ذلك حليفته بابل، وانتهزت بعض الأقاليم النائية الفرصة فانسلخت عن الدولة الآشورية ولا سيما في المنطقة الجبلية في الشمال والشمال الشرقي في منطقة بلاد نائيري. مما اضطر شمشي ـ ادد إلى تجهيز عدد من الحملات العسكرية لإعادة السيطرة عليها، وعلى الرغم من العلاقات الطيبة التي كانت تربط بلاد بابل بآشور يبدو أن الملك البابلي قد تورط في حلف مع ملك عيلام وزعماء القبائل الكلدية والآرامية في الجنوب والشرق ضد الدولة الآشورية فجهزت حملة عسكرية على المنطقة دحرت فيها قوات الحلف وذلك عام ٨١١ ق.م.

وكان لتعدد الحملات العسكرية التي خاضها الجيش الآشوري وللثورات الداخلية التي قامت في بلاد بابل وآشور، أن ضعفت الجبهة الداخلية فكان ذلك إيذانًا بنهاية العصر

الإمبراطوري الزاهر، فقد خلف شمشي _ ادد ابنه القاصر ادد _ نراري الثالث، فتولت أمه شمورامات (التي عرفت في المصادر الكلاسيكية باسم سميراميس) الحكم وصية على ابنها وحكمت نيابة عنه لمدة خمس سنوات، وفي عهد ادد _ نراري حاولت الدويلات والممالك السورية بما فيها دويلة إسرائيل تجديد حلفها القديم والقضاء على النفوذ الآشوري في سوريا غير أن القوات الآشورية القوية التي سارعت إلى معالجة الموقف حالت دون ذلك.

تعاقب على العرش الآشوري بعد هذه الفترة عدد من الملوك الضعفاء الذين لم يتمكنوا من مواجهة التحديات التي مارستها أورارتو في الشمال والقبائل الكلدية في الجنوب و الحلف السوري في الغرب إضافة إلى التمزق الإداري داخل الدولة الآشورية فانكمشت سلطتهم ونفوذهم وعمّت بلاد آشور ضائقة اقتصادية حادة نتيجة لقطع الطرق التجارية المؤدية إلى سوريا وآسيا الصغرى وبلاد بابل، فاجتاحت بلاد آشور ثورة أهلية عارمة قضت على الملك الحاكم وأفراد أسرته ونصبت بدلاً عنه الملك تجلاتبليزر الثالث الذي عرف في المصادر البابلية باسم (بول)، الذي ادعى بأنه سليل ادد _ نراري الثالث.

يُعدُ تاريخ اعتلاء تجلاتبليصر الثالث عام ٧٤٤ ق.م بداية لعصر الإمبراطورية الآشورية الثانية وكان تجلاتبليصر إداريًا من الطراز الأول وقائدًا عسكريًا فذًا استطاع خلال سني حكمه الذي دام حتى عام ٧٠٥ ق.م من القضاء على الفوضى والارتباك السياسي والاقتصادي الذي عم بلاد آشور في أعقاب الثورة الأهلية وأن يعيد للدولة سابق هيبتها وسلطانها ويزيد من نفوذها في مختلف الجبهات، وكما سبقت الإشارة، فقد كانت من الأسباب الرئيسة التي ساعدته على تحقيق ذلك التنظيمات الإدارية الدقيقة التي أدخلها على أسلوب إدارة المقاطعات والأقاليم الآشورية المختلفة والتنظيمات العسكرية الجديدة التي اعتمدها في بناء جيشه إضافة إلى السياسة المدروسة في تثبيت الدولة.

وكان من جملة نشاطات تجلاتبليزر العسكرية والإدارية أنه ضمن حدود بلاد آشور الشرقية وأعاد تنظيم المنطقة حيث قسمت إلى مقاطعتين مقاطعة أرابخه)كركوك حاليًا) التي امتدت حتى شرقي بغداد في حين امتدت المقاطعة الثانية لتشمل الأراضي الواقعة إلى الجنوب منها والتي تفصل بين بلاد عيلام وبلاد بابل، ونظرًا لأن الملك البابلي آنذاك كان

موالياً للدولة الآشورية فقد فسح المجال أما تجلاتبليزر للاهتمام بالجبهة الشمالية الشرقية حيث كانت دولة أورارتو قد زادت من ضغوطها على حدود الدولة الآشورية وغدت تهدد كيانها إضافة إلى قطعها الطرق التجارية، فجهز حملة عسكرية إلى أراضي نمري الواقعة شمال إقليم زاموا المجاورة لدولة أورارتو وتمكن من فرض سيطرته على المنطقة دون مقاومة تذكر مما اضطر ساردر ملك أورارتو أن يسارع إلى عقد حلف ضد الآشوريين في الجبهة الشرقية غير أن زحف الجيش الآشوري في السنة الثانية قضى على قوات ذلك الحلف وهرب ساردر تاركاً وراءه جميع ممتلكاته الشخصية، وبعد الانتصارات التي حققها على الجبهة الشمالية الغربية قام بإعادة تنظيم إدارة الأقاليم التابعة للدولة الآشورية في الجبهة الغربية وقضى على الجيوب القليلة التي كانت ما تزال تثير القلاقل ضد الآشوريين في سوريا واتخذ سوريا قاعدة عسكرية لتوجيه الحملات إلى الشمال والشمال الشرقي. وفي عام ٧٣٤ ق.م حدثت بعض الاضطرابات في جنوب فلسطين وأعيد تشكيل حلف شمال سوريا الذي ضم عدداً من الدويلات السورية ودويلة إسرائيل في حين كان ياهو ملك يهوذا موالياً للدولة الآشورية وقد استنجد بالملك الآشوري ضد قوات الحلف مما اضطر تجلاتبليزر لأن يتدخل عسكرياً ويعيد سيطرته على المنطقة.

وفي الجبهة الجنوبية وبعد وفاة الملك البابلي الموالي للآشوريين، تمردت إحدى القبائل الكلدية ضد آشور في حين ظلت المقاطعات الآشورية في الشرق من بلاد بابل موالية للدولة الآشورية كما كان كذلك سكان بلاد بابل المحليون، وقد استخدم تجلاتبليزر أساليب دبلوماسية أولاً، ومن ثم أعقبها بحملة عسكرية قضى فيها على المتمردين ودخل بلاد بابل وقلد نفسه ملكاً عليها وقد عرف باسم (بول).

وفي عهد شيلمنصر الخامس القصير، قامت حملة عسكرية مهمة على الجبهة الغربية وحوصرت مدينة السامرة وربما كان قائد الجيش الآشوري سرجون الذي تولى العرش بعده حيث ادعى سرجون نفسه بأنه فتح السامرة.

تولى سرجون الحكم عام ٧٢١ ق.م ولا نعرف بالضبط علاقته بالملك السابق غير أنه كان على رأس سلالة حكمت حتى نهاية كيان الآشوريين السياسي.

ويبدو أن بعض الأقاليم والمقاطعات الآشورية الحدودية قد استغلت فرصة اعتلاء سرجون العرش، ربما بشكل غير شرعي، فأعلنت التمرد والعصيان بتحريض من دولة أورارتو وبعض المدن السورية ومصر وبلاد عيلام إضافة إلى القبائل الجبلية والكلدية، وقد تمكن زعيم قبيلة كلدو. وهو مردوخ ـ إبلا ـ ادينا من اغتصاب العرش البابلي وساندته في ذلك مملكة عيلام ورغم محاولات سرجون القضاء عليه في الفترة الأولى من اعتلائه العرش إلا أنه ظل يحكم ملكًا على بلاد بابل لمدة عشر سنوات نظرًا لانشغال سرجون في الجبهة الغربية وقاست في عهده المدن البابلية من ضائقة اقتصادية حادة نتيجة تحكم القبائل الكلدية والعيلامية في الوضع وكان البابليون يستنجدون بالملك الآشوري لتخليصهم من تلك الأوضاع، وبعد تمكن سرجون من توطيد مركزه في الجبهة الغربية توجه نحو بلاد بابل وفتح مدنها ونصب نفسه نائبًا للإله عليها غير أنه أعاد تنصيب الزعيم الكلدي مردوخ ـ ابلا ـ ادينا زعيمًا على قبيلته بعد أن قدم له الخضوع والطاعة، وفي الجبهة الغربية، توجهت حملة عسكرية للقضاء على التمرد الذي أثارته بعض المدن التي تزعمتها حماة وتم القضاء عليها في قرقر وذلك عام ٧٢١ ق.م غير أن الخطر الرئيسي الذي كان يواجه الدولة الآشورية هي دولة أورارتو في الشمال ومملكة زكرتو شرقي بحيرة وان والميديون الإيرانيون، ولم تتمكن الحملات التأديبية من القضاء على الاضطرابات التي أثارتها هذه القوى في المنطقة الحدودية مما اضطر سرجون أن يتخذ الإجراءات اللازمة للقيام بحملة عسكرية قوية على المنطقة، وقد عرفت هذه الحملة لدى الباحثين بحملة سرجون الثامنة وأخذت تفاصيلها من التقرير الذي كتبه سرجون على شكل رسالة موجهة إلى الإله آشور، وقد تمكنت الحملة من تحقيق أهدافها والقضاء على أسباب الاضطرابات في المنطقة علي الرغم من الصعوبات الكثيرة التي واجهها الجيش الآشوري أثناء تقدمه في المنطقة الجبلية، كما قضى سرجون على قوة دولة مشكو في جنوب شرقي آسيا الصغرى وضمن ولاءها.

وكان من بين أعمال سرجون الخالدة والتي تشهد بالتقدم الحضاري الذي وصلت إليه الدولة الآشورية في هذه الفترة بناؤه عاصمة جديدة للدولة الآشورية على بعد بضعة كيلومترات من العاصمة القديمة نينوى وهي مدينة دور ـ شروكين)خرسباد)، أي مدينة سرجون، واستغرق بناء العاصمة تسع سنوات وانتهت في عام ٧٠٦ ق.م حيث انتقل إليها

سرجون غير أنه لم يكتب لهذه المدينة البقاء فترة طويلة، فما أن توفي سرجون في السنة التالية إلا وهجرتْ من قبل ابنه سنحاريب وربما نقلت بعض منحوتاتها وتماثيلها إلى العاصمة نينوى، وقد نالت خرصباد شهرتها في العصر الحاضر حيث قامت بعثات التنقيب الأجنبية بالعمل فيها والكشف عن قصورها ومعابدها التي كانت تزينها اللوحات الجدارية المنحوتة نحتًا بارزاً والثيران المجنحة والتماثيل والمسلات ونقلت معظم الآثار المكتشفة فيها إلى المتحف البريطاني في لندن ومتحف اللوفر في باريس في حين فقد الكثير من آثارها أثناء نقلها إلى أوربا.

اعتلى سنحاريب العرش بعد والده سرجون وذلك عام ٧٠٤ ق.م وكانت الإمبراطورية الآشورية عند توليه الحكم تنعم باستقرار نسبي بفضل الجهود العسكرية الكبيرة التي بذلها سرجون ولا سيما في الجهة الشمالية، فكان عهد سنحاريب عهد رخاء اقتصادي وازدهار حضاري متميز تمثل بنشاطاته العمرانية الكثيرة التي شملت معظم المدن الآشورية، وتركزت في مدينة نينوى التي أتخذها عاصمة له عند توليه الحكم غير أن السلام النسبي الذي تمتعت به آشور لم يدم طويلاً حيث ما لبثت الأوضاع أن اضطربت في بلاد بابل، أعقبها تمرد في المدن السورية والفلسطينية، وكان على سنحاريب أن يعمل بقوة وعزم لإعادة الهدوء إلى هاتين المنطقتين، ففي بلاد بابل قام زعيم قبيلة ياقين الكلدي باغتصاب العرش البابلي، وسانده في ذلك حكّام عيلام وبعض القبائل الآرامية المناهضة للحكم الآشوري فجهز حملة على بلاد بابل قضت على التمرد ودخل سنحاريب مدينة بابل. وفي الجبهة الغربية، قامت بعض المدن الفلسطينية بضمنها يهوذا بتحريض ومساندة الفرعون المصري بإعلان التمرد ضد الحكم الآشوري فقام سنحاريب بتجهيز حملة عسكرية عليها وأخضع المدن المتمردة وحاصر أورشليم عاصمة يهوذا غير إنه لم يفتحها لأسباب ما تزال غامضة، وعادت القوات الآشورية لتتوجه ثانية إلى بلاد بابل التي قامت بالتمرد ثانية، وبعد عدة حملات تأديبية لم تكن حاسمة توجه سنحاريب بحملة عسكرية قوية قوامها قطعات برية وأخرى نهرية للقضاء على مملكة عيلام التي كانت تدعم دائمًا القبائل الكلدية ضد النفوذ الآشوري وهوجمت بلاد عيلام برًا وبحرًا على الرغم من محاولاتها الهجوم على بلاد بابل عن طريق الدير وحاصر مدينة بابل لمدة تسعة أشهر ثم دخلها ودمرها تدميراً كاملاً وسلط عليها مياه نهر الفرات.

وفي عام ٦٨١ ق.م اغتيل سنحاريب من قبل أحد أبنائه في ظروف غامضة وتولى العرش بعده ابنه اسرحدون.

وإلى جانب الإنجازات العسكرية التي حققها سنحاريب خلال سني حكمه، كانت نشاطاته العمرانية ومشاريعه الروائية ذات أهمية قصوى سيما وأن التنقيبات الأثرية قد كشفت عن بقايا بعض النشاطات في معظم المدن الآشورية المهمة، وتركزت أعمال سنحاريب العمرانية في مدن نينوى التي اتخذها عاصمة لإمبراطوريته المترامية الأطراف، ولتنفيذ خططه في جعل العاصمة نينوى تتناسب وعظمة الإمبراطورية الآشورية وقوتها، قام بتوسيع المدينة إلى درجة كبيرة وأعاد بناء أسوارها ببواباتها الخمس عشرة، وبلغ محيط المدينة شبه المنحرف ما يقرب من اثنى عشر كيلومتراً وشيد القصور والمباني الملكية في الموقع المعروف حاليًا بتل قوبنجق، في حين تركزت المعابد في موقع تل النبي يونس، وقد بينت التنقيبات التي أجريت في تل قوبنجق وكشفت عن قصر سنحاريب المدى البعيد الذي وصله الذوق الآشوري المعماري والفني كما أظهرت التأثيرات الفنية السورية على الطرز المعمارية والفنية المستخدمة والتي تشير إلى أن سنحاريب قد استفاد من الحرفيين السوريين الذين جلبهم معه وأسكنهم نينوى، ولم تقتصر أعمال سنحاريب على بناء المعابد والقصور بل تضمنت فتح الشوارع والساحات الكبيرة وفق تصميم كامل للمدينة وتأسيس حدائق وبساتين داخل المدينة زرع فيها مختلف أنواع النباتات والأشجار التي كانت تنمو في المناطق الجبلية والمناطق التي وصلتها الجيوش الآشورية في سوريا ولبنان كما قام بعمل بركة اصطناعية كبيرة جمع فيها شتى أنواع الطيور والأسماك والحيوانات المائية، ولا رواء البساتين والحدائق وإيصال المياه العذبة إلى العاصمة نينوى قام سنحاريب بتنفيذ مشروع ري ما تزال آثاره باقية حتى يومنا هذا فقد جلب المياه العذبة إلى نينوى من نهر الكومل الذي يبعد ما يقرب من خمسين ميلاً عن نينوى بواسطة قناة شيدها بحر الكلس تمتد من منطقة جروانة.

وحيث أن المنطقة التي تمر بها القناة فيها المرتفعات والوديان فقد شيد لها قناطر على بعض الوديان طول إحداها ثلاثمائة ياردة وعرضها أربع وعشرون ياردة، وعند صدر القناة عند القرية المعروفة حاليًا باسم خنس توجد منحوتات ضخمة، تحمل موجز أخبار تشييد المشروع.

وفي اربائيلو قام سنحاريب بمشروع أرواء آخر، وتكاد لا تخلو أية مدينة آشورية من آثار سنحاريب العمرانية، ففي مدينة ثربيص القريبة من نينوى كشف عن معبد للإله نركال وعن قصر لولاية العهد أعيد بناؤهما في عهده كما أوضحت التنقيبات مهارة ودقة المعمار الآشوري لاسيما فيما يخص تصريف المياه لتلطيف الجو أولاً وربما لإقامة بعض الطقوس الدينية كالتي تتم في المسبح المقدس "بيت رمكي".

وعند اعتلاء اسرحدون (٦٨١- ٦٦٩ ق.م) العرش، كانت مهمته الأولى القضاء على الفتن والاضطرابات التي وقعت بين صفوف الخبيش الآشوري في أعقاب اغتيال والده، وكذلك التمرد الذي وقع في بعض الأقاليم التي استغلت فرصة الاضطرابات، غير أن السياسة التي اتبعها اسرحدون في معالجته المشكلة البابلية كانت تختلف اختلافًا كبيرًا عن سياسة والده، ولعله أفاد من الأخطاء التي وقع فيها والده، وكذلك من ممارسته الفعلية في حكم بلاد بابل في عهد أبيه، وهكذا اتبع من بلاد بابل سياسة اللين والترضية وباشر بإعادة بناء بابل التي كان والده قد دمرها وأعاد إلى السكان أملاكهم التي كانت قد سُلبتْ منهم أثناء سيطرة القبائل الكلدية وقد لاقت هذه السياسة نجاحًا كبيرًا بين صفوف البابليين حتى غدت بابل نفسها قاعدة عسكرية للقوات الآشورية لمواجهة الأخطار المتوقعة من الشرق دائمًا كما لم تلق محاولات حكام عيلام في احتلال بابل وتحريض القبائل ضد الآشوريين أي صدى عند البابليين.

وفي الجبهة الشمالية والشمالية الغربية كانت بعض القبائل السيئية قد توغلت في المنطقة كما عادت للظهور بعض القبائل الكسرية فوقعت صدامات مسلحة بينها وبين القوات الآشورية في حين أقيمت علاقات ودية وأبرمت معاهدات صداقة مع بعض الأمراء الميديين، ويبدو أن السياسة العام التي اتبعها أسرحدون في معالجة المشاكل هي الجنوح إلى السلم كلما كان ذلك ممكنًا حتى وإن اقتضى الأمر خسران بعض الأقاليم.

غير أن اسرحدون لم يتبع سياسة اللين دائمًا، ففي الغرب كانت بعض المدن السورية وعلى رأسها مدين صور وبتحريض من مصر، تعمل على خلق الاضطرابات وتنشر التمرد ضد الآشوريين، فقرر اسرحدون أن يقضي على أسباب التمرد الرئيس في الجبهة الغربية

وذلك بالقضاء على الملك الحبشي في مصر، وفي عام ٦٧٥ ق.م توجه الجيش الآشوري نحو الحدود المصرية غير أن سوء الأحوال الجوية حال دون استمراره في الدخول إلى مصر. وفي عام ٦٧١ ق.م تقدم الجيش الآشوري ودخل مصر وهزم ملكها طهراقا وحوصرت مدينة منفيس عاصمة مصر السفلى ومن ثمَّ فتحت وهرب طهراقا نفسه إلى الجنوب وأعلن اسرحدون نفسه ملكًا على مصر العليا والسفلى وإن كان ادعاؤه هذا قد تجاوز انتصاراته العسكرية، غير أن طهراقا عاد ثانية وألب الحكام المحليين في مصر السفلى واستعاد منفيس، فقام اسرحدون عام ٦٦٩ ق.م بإعداد حملة عسكرية جديدة للزحف على مصر مرة أخرى لكنه توفى قبل أن يصل إلى مصر.

وفي فترة مبكرة من عهد أسرحدون قام بتنظيم أمر ولاية العهد ووضع الترتيبات اللازمة لذلك تفاديًا لما قد يحدث من اضطرابات ومؤامرات كالتي حدثت في عهد أبيه، ففي عام ٦٧٢ ق.م أعلن أسرحدون في اجتماع كبير في العاصمة حضره حكام المقاطعات وقادة الجيش وكبار الموظفين عن تعيين ابنه آشور بانيبال وليًا للعهد على بلاد آشور، وتثبيت ابنه الثاني (شمش ـ شم - اوكن) وليًا للعهد على بلاد بابل وذلك بعد أن أخذ موافقة مجلس العائلة الملكية وموافقة الآلهة القومية وقد طلب من الحكام والقادة أن يقسموا اليمين أمامه معترفين بالترتيبات ومعاهدين الملك على تنفيذها بكل دقة كما أخذت مواثيق تحريرية من بعض الحكام التابعين والموالين ثبتت جميع الإجراءات وحددت العقوبات على كل من يحنث بيمينه أو يغير من الوصية أو يعمل بأي شكل من الأشكال على عدم تطبيقها بكل دقة، وقد تم الكشف عن إحدى نسخ هذه المعاهدات التي عقدت مع أحد الأمراء الميديين، وعندما توفى أسرحدون نفذت الخطة التي وضعها لولاية العهد بهدوء واعتلى آشور بانيبال العرش الآشوري في حين اعتلى أخوه (شمش ـ شم ـ اوكن) العرش البابلي.

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها اسرحدون في تهدئة الأوضاع الداخلية والتحسب لأية مشكلة قبل وقوعها، وعلى الرغم من القوة التي تمتعت بها الدولة الآشورية في هذه الفترة وامتداد نفوذها، إلا أن التحديات التي واجهها آشور بانيبال كانت أكبر وأعظم.

ففي الجبهة الشمالية والشمالية الشرقي كان النظام والأمن اللذان تحققا في العهود السابقة قد اضطربا ربما بسبب انشغال الجيش الآشوري في الجبهة الغربية.

أما في بلاد بابل حيث كان شمش ـ شم ـ اوكن قد تولى العرش حسب الترتيبات التي وضعها والده اسرحدون، فكانت الأمور تسير بهدوء بين الأخوين في بداية الأمر إلا أن مملك عيلام كانت تعمل دومًا للتدخل في شؤون بلاد بابل بهدف السيطرة عليها مستغلة بعض القبائل الكلدية والآرامية المناوئة للآشوريين فبدأت تعمل على إشعال نار الفتنة بين الأخوين. وفعلاً توترت العلاقات بين آشور بانيبال وشمش ـ شم ـ اوكن إلى درجة اضطر معها آشور بانيبال إلى تجهيز حملة عسكرية على بلاد عيلام فتح خلالها عاصمتها شوشة ومدنها المهمة ونصب أحد أفراد الأسرة المالكة فيها حاكمًا عليها إلا أن تلك الإجراءات لم تقض على تدخل عيلام في شؤون بلاد بابل بل إن الحاكم العيلامي اتفق مع شمش ـ شم ـ اوكن نفسه للوقوف ضد آشور كما اتفقت معهما بعض القبائل الكلدية والآرامية والعربية وربما كانت مصر وحاكم يهوذا مؤيدين لذلك ومتفقين على مقاومة آشور بانيبال. وهكذا نشبت الحرب بين الأخوين واستمرت ثلاث سنوات متتالية انتهت باستسلام بابل وانتحار شمش ـ شم ـ اوكن، أما عيلام فكانت الفتن الداخلية قد أنهكتها مما سهّل على الجيش الآشوري دخولها وتدمير مدنها وفتح عاصمتها وكانت بذلك نهاية مملكة عيلام.

ومع الانتصارات التي حققها آشور بانيبال في بلاد بابل وعيلام، إلا أن الغموض يكتنف الفترة اللاحقة من حكمه وحتى نهايته عام ٦٢٦ ق.م، ولا سبيل لمعرفة تفاصيل الأحداث التي تتابعت على بلاد آشور خلال هذه الفترة إلا من مصادر ثانوية، وقد تكون من أسباب هذا الغموض بعض المؤامرات الداخلية واضطراب الأوضاع إضافة إلى تفاقم الأخطار الخارجية.

وتشير المعلومات القليلة المتوفرة إلى الارتباك والفوضى اللذين عما بلاد آشور في عهد خليفة آشور بانيبال المدعو آشور ـ اطل ـ الاني، وقد رافق ذلك ظهور زعيم قوي في بلاد بابل وهو نبوبولاصر زعيم الكلديين الذين تمكن من تنصيب نفسه ملكًا على بلاد بابل عام

٦٢٦ ق.م وبدأ يعدّ العدة للقضاء على الدولة الآشورية واتفقت أهدافه مع مصالح الميديين في عهد ملكهم كي ـ اخسار واتفق الطرفان على تفويض الدولة الآشورية والهجوم عليها مما اضطر الآشوريون إلى طلب المساعدة من مصر حليفتهم آنذاك، وكان يحكم آشور آنذاك الملك سين ـ شار ـ اوشكن.

بدأ نبوبولاصر بإخراج الحاميات العسكرية الآشورية من بلاد بابل، واتجه بجيشه على طول نهر الفرات إلى المناطق التي تتواجد فيها القبائل الآرامية غير أن تقم الجيش الآشوري اضطره للانسحاب، وحاول الهجوم عام ٦١٥ ق.م على مدينة آشور ولم يتمكن من دخولها إلا بعد أن عقد اتفاقًا مع الميديين للهجوم سوية على بلاد آشور، في عام ٦١٤ ق.م فتحت آشور ومدينة تربيص القريبة من نينوى وأخيراً حوصرت نينوى وسقطت عام ٦١٢ ق.م بعد ثلاثة أشهر من حصارها، وأضرمت فيها النيران ونُهبت قصورها ومعابدها، وتمكنت بعض الوحدات العسكرية الآشورية من التوجه إلى مدينة حران في سوريا ونصبت أحد أفراد العائلة الآشورية من التوجه إلى مدينة حران في سوريا ونصبت أحد أفراد العائلة الآشورية المالكة، وهو آشور ـ أوبالط الثاني، ملكًا عليها وبذلك ظلت الدولة الآشورية قائمة اسمسيا، وفي عام ٦١٠ ق.م قامت جموع الميديين والقبائل الحليفة لها بالهجوم على حران، والتحق بهم الجيش البابلي فانسحب الجيش الآشوري إلى الجنوب الغربي حتى وصلت القوات المصرية التي جاءت لمساعدة الآشوريين، وحقق الآشوريون بعض الانتصارات غير أن زحف الجيش البابلي بقيادة ولي العهد البابلي نبوخذ نصر اضطرهم للانسحاب إلى كركيش حيث وقعت معركة كبرى كان الانتصار الحاسم فيها للجيش البابلي.

وهكذا انتهى كيان الدولة الآشورية السياسي وأسدل الستار على أعظم وأقوى إمبراطورية عرفها التاريخ القديم حتى حينئذ غير أن الحضارة الآشورية وتأثيراتها على الأقوام والبلدان المعاصرة لها ظلت ظاهرة تحكي قصة الآشوريين ومجدهم.